(التوبة)

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ، لاإله غيره ولامعبود سواه... لاإله غيره ولامعبود سواه...نَحْمَدُه سبحانه وتعالى ونشكره ونتوب إليه ونَسْتغفرُه ، ونَعوذُ بالله مِنْ شُرورِ أنْفُسِنا ومِن سَيئاتِ أعْمَالِنا مَنْ يَهدِه الله فلا مُضِلّ لَه ومَنْ يُضلِل فلا هَادي له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له القائل : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ...) ونشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبدُ الله ورسوله القائل : (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا) اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين...وبعد فيقول الله تعالى : (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً) .

• عباد الله : إنني لن أتحدث اليوم عن بطولات وتضحيات المؤمنين فى مجالس العلم والزهد والأدب ، سأتحدث عن المذنبين والعصاة الذين ضحوا بشهواتهم مخافة من الله...هؤلاء الذين أحبهم الله كما قال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) .

فالتائبون سالت دموعهم خوفًا من الله...واقشعرت جلودهم من خشية الله...فتعالوا بنا لنسمع شيئا من قصصهم :

• لقد أشرقت شمس الإسلام على مدينة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان ، وبينما كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالسا في المسجد كالقمر وسط أصحابه الذين هم كالنجوم في ظلام الليل يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ...وعندما اكتمل المجلس بكبار الصحابة من المهاجرين والأنصار...إذا بامرأة محجبة تدخل من باب المسجد...فسكت صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسكت معه الجميع ، وأقبلت المرأة رُويدًا رُويدًا تمشي على وجل وخشية لم تعبأ بشيء غير الذى جاءت من أجله!! فلقد رمت بكل مقاييس البشر وموازينهم ، لم تخش الناس ونظرات الناس وماذا يقول الناس ؟ أقبلت تطلب الموت! نعم تطلب الموت ، فالموت يهون إن كان معه الصفح والمغفرة...يهون إن كان بعده الرضا والقبول .

• أقبلت المرأة تمشي حتى وصلت إليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم وقفت أمامه وقالت : يا رسول الله! لقد أصبت حدًا فطهرني...فاحمرّ وجهه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم حوّل وجهه إلى الميمنة وسكت كأنه لم يسمع شيئًا...لعل المرأة تقرأ من فعله عدم رضاه بما سمع فترجع...فقالت يا رسول الله! لقد أصبت حدًا فطهرني...وسكت للمرة الثانية كأنه لم يسمع شيئًا...حاول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن ترجع المرأة عن كلامها ولكنها قالت يا رسول الله! أتريد أن تردني كما رددت ماعز بن مالك ؟ فوالله إني حبلى من الزنا...فماذا فعل الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قال : (اذْهَبِي حَتَّى تَضَعِيهِ) فَذَهَبَتْ...فَلَمَّا وَضَعَتْهُ جَاءَتْ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَدْ وَضَعْتُهُ...قَالَ : (اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ) فَذَهَبَتْ فَأَرْضَعَتْهُ حَتَّى فَطَمَتْهُ ثُمَّ جَاءَتْ ، فَقَالَتْ : يَارَسُولَ اللَّهِ! قَدْ فَطَمْتُهُ...قَالَ : (اذْهَبِي فَأَكْفِلِيهِ قَوْمًا) فَذَهَبَتْ ثُمَّ جَاءَتْ هِيَ وَأُخْتٌ لَهَا فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذِهِ أُخْتِي تَكْفُلُهُ...فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْجَبُ مِنْهَا وَمِنْ أُخْتِهَا! ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُحْفَرَ لَهَا ثُمَّ قَالَ : (إِذَا وَضَعْتُمُوهَا فِي حُفْرَتِهَا فَلْيَذْهَبْ رَجُلٌ مِنْكُمْ بَيْنَ يَدَيْهَا كَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَشْغَلَهَا حَتَّى إِذَا شَغَلَهَا...فَلْيَذْهَبْ رَجُلٌ مِنْكُمْ مِنْ خَلْفِهَا بِحَجَرٍ عَظِيمٍ فَلْيَرْمِ بِهِ رَأْسَهَا) .

وفى رواية لم تأت بمن يكفله فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

(من يكفل هذا وهو رفيقي في الجنة كهاتين؟) وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى

• عجبًا لهذه المرأة ولحالها! أي إيمانٍ هذا الذي تحمله ؟! ما هذا الإصرار والعزم ؟! ثلاث سنوات تزيد أو تنقص والأيام تتعاقب والشهور تتوالى وفي كل لحظة لها مع الألم قصة وفي عالم المواجع رواية ، ثم أتت بالطفل بعد أن فطمته وفي يده كسرة خبز وذهبت إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت : طهرني يا رسول الله ، فأخذ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طفلها وكأنه أخذ قلبها من بين جنبيها لكنه الحق الذي تستقيم به الحياة ، ثم يأمر فتُدفن إلى صدرها ثم ترجم...فيطيش دمٌ من رأسها على خالد بن الوليد فسبّها على مسمع من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (مَهْلاً يَا خَالِدُ! فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ) فالْمَكْس مِنْ أَقْبَح الْمَعَاصِي وهو الذي يأخذ أموال الناس في غير حق ، فيكثر خصومه يوم القيامة ويكثر الآخذون من حسناته لكونه قد ظلمهم وقد جاء في حديث المفلس الذي قال فيه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ ؟) قالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ ، فَقَالَ : (إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ) وفي رواية أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما أراد أن يصلّي عليها...قال له عمر : تُصلّي عليها يا نبي الله وقد زنت ؟! فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

(لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ ، وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا للهِ تَعَالَى؟)

• سبحان الله! فهذه امرأة ارتكبت كبيرة إلا أنها ندمت ولم تصر على المعصية فكان جزاؤها الجنة قال تعالى : (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) لقد أخطأت المرأة ولكنها لم تمارس الرذيلة...فماذا بعد أنْ جَادَتْ بنَفْسِهَا للهِ ؟ يخبرنا عنها الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال : (والذي نفسي بيده لقد رأيتها تنغمس في أنهار الجنة) .

• عباد الله : منذ سنوات نشرت إحدى الجرائد مقابلة مع أحد أكبر مروِّجي المخدرات في بلد عربي ، هذه المقابلة كانت بعد أن تاب الرجل إلى الله ، يقول هذا التائب عن سبب توبته وهو يبلغ من العمر الأربعين : إنه كان يُروّج ويستخدم المخدرات على مدى ثمانية وعشرين عامًا ، وقد قبض عليه عدة مرات ثم يخرج من السجن...فيقول : طلب مني أحد الأشخاص في ذات ليلة مخدرات...فذهبت إليه وعندما طرقت الباب فتحت لي أمه وسألتني : ماذا تريد ؟ قلت : أريد فلانًا ، فقالت : غير موجود بعد أن نهرتني...فلما عدتُ مرة أخرى وأخبرته بما حدث قال لي : فهل أغضبتك ؟ قلت : نعم...فقام بضرب أمّه أمامي فأبعدته عن أمه ومنعته من ضربها ، فكان هذا الموقف من أسباب توبتي ورجوعي إلى الله ، فأردت أن أصلي ولكن كيف أتوضأ ؟ فأرشدتني ابنتي التي تبلغ من العمر تسع سنوات إلى كيفية الوضوء ، ثم صليت ركعتين فيقول : والله لم أجد ألذ ولا أطعم من هاتين الركعتين على مدى 28 عامًا...فليبادر كل إنسان بالتوبة اقتداء بالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث يقول : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى رَبِّكُمْ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ) ولم لا ؟ فإن الله يغفر الذنوب جميعا قال تعالى :

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ...)

• عباد الله : قد يسمع أحدنا موعظة فتؤثر في قلبه ويتأثر بها فينوى التوبة ثم يعود إلى المعصية ، فإذا أراد التوبة مرة أخرى جاءه الشيطان وقال له : ليس لك توبة!!! فهذا من تلبيس إبليس ، فكلما أذنبت أخى المسلم ذنبا تب إلى ربك واستغفره ولا تيأس فقال النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ : (أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي...فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي...ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ : أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي...فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي...ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ : أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي...فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي) وفى رواية : (فليعمل ما شاء) ومعنى : (قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء) أي كلما أذنبت ذنبا فاستغفر ربك فإن الله يغفر لك...

• وقد جاء رجل إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال يا رسول الله أَحَدُنَا يُذْنِبُ! قالَ : (يُكْتَبُ عَلَيْهِ) قالَ : ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ مِنْهُ وَيَتُوبُ... قالَ : (يُغْفَرُ لَهُ وَيُتَابُ عَلَيْهِ) قالَ : فَيَعُودُ فَيُذْنِبُ! قالَ : (يُكْتَبُ عَلَيْهِ) قالَ : ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ مِنْهُ وَيَتُوبُ...قالَ :

(يُغْفَرُ لَهُ وَيُتَابُ عَلَيْهِ ، وَلا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا)

• وجاء رجل كبير قد سقط حاجباه على عينيه فقال : يا رسول الله! أَرَأَيْتَ رَجُلاً عَمِلَ الذُّنُوبَ كُلَّهَا فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهَا شَيْئًا إِلاَّ أَتَاهَا...فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ قالَ : (فَهَلْ أَسْلَمْتَ ؟) قالَ : فَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ قالَ : (نَعَمْ تَفْعَلُ الْخَيْرَاتِ وَتَتْرُكُ السَّيِّئَاتِ فَيَجْعَلُهُنَّ اللهُ لَكَ كُلَّهُنَّ خَيْرَاتٍ) قالَ وَغَدَرَاتِي وَفَجَرَاتِي ؟ قالَ : (نَعَمْ) قالَ : اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ فَمَا زَالَ يُكَبِّرُ حَتَّى تَوَارَى...

• وعن أبي هُرَيْرَةَ قالَ قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُم) لأن الإستغفار تجديد للعهد الذى بينك وبين خالقك فهو توبة دائمة .

• فإذا كان العبد صادقا فى توبته تبدلت سيآته حسنات قال تعالى :

(وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا) .

• ومن عظيم رحمة الله بهذه الأمة أن التوبة من الذنب لا تحتاج إلى بذل مال ، أو قتل نفس كما فُرض قتل النفس على بني إسرائيل عندما أرادوا التوبة من عبادة العجل قال تعالى : (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) .

• ولقد استمعتم فى اللقاء السابق لوصف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفرحة الله بتوبة عبده فيقول : (للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ : اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ ! أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ) .

ولما قيل للحسن البصري : "ألا يستحي أحدنا من ربه يستغفر ربه ثم يعود ، ثم يستغفر ربه ثم يعود ؟ فقال رحمه الله : "ودَّ الشيطان لو ظفر بمثل هذا!!! فلا تملوا معشر المسلمين من الإستغفار..وأتبعوا السيئة بالحسنة يغفرالله لكم ما قد سلف إن شاء الله قال تعالى :

(وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ)

فأكثروا معشر المسلمين من التوبة والإستغفار فقال ابن عباس رضي الله عنهما كان فى الأرض أمانان من عذاب الله : رفع أحدهما وبقي الآخر...فأما الأمان الذى رفع فهو رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأما الأمان الذى بقي فهو الإستغفار قال تعالى :

(وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

وعنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : (كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ)